المحاريب في العمارة الدينية بالجزائر في الفترة العثمانية

Mihrabs of religious architecture in Algeria in the Ottoman era

موشموش محمد*

جامعة محمد بوضياف المسيلة

Mohamed.mouchmouche@univ-msila.dz

سعيد بوزرينة

المركز الجامعي نور البشير البيض

saidbouzrina@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/05/06 تاريخ القبول 2021/05/21 تاريخ النشر 2021/07/05

ملخص:

المحراب يعرف في اصطلاح اليوم بالقبلة، وهي الحنية المجوفة التي تكون في حائط المسجد لجهة القبلة المخصصة للإمام أثناء الصلاة، ولقد تطور شكله بتطور العمارة والفنون الإسلامية، فأبدعت فيه أشكالا مختلفة تراوحت فيه ما بين الشكل النصف الدائري والشكل المضلع.

اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من النماذج تعود إلى الفترة العثمانية منها ما هو موجود في مساجد مدينة الجزائر، كمحراب جامع صفر بن عبد الله ومحراب الجامع

* المؤلف المراسل

الجديد ومحراب جامع البراني، ومنها ما نجدها في الزوايا كمحراب زاوية سيدي امحمد، ومحراب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ومحراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف بمليانة، وزاوية باش تارزي بقسنطينة.

يهدف هذا البحث التعريف بخصائص ومميزات المحاريب في العمارة الدينية في الجزائر العثمانية، وتطورها من خلال شكلها ومنظومتها الفنية. وتبرز من خلال ذلك الإشكالية الرئيسية مضمونها:

هل عرف المحاريب تطورا من حيث البنية التخطيطية والفنية في الفترة العثمانية؟ وهل اقتبس الفنان المسلم من الموروث الفني للفترة الوسيطة من خلال المساجد التي سبقت الفترة العثمانية؟

كلمات مفتاحية: المحراب، الحنية المجوفة، القبلة، العمارة والفنون الإسلامية، الفترة العثمانية.

Abstract:

The mihrab is known today in the terminology of the qiblah, which is the hollow apse, which is found in the wall of the mosque in the direction of the qiblah dedicated to the imam during prayer.

This research aims to introduce the characteristics of mihrabs in religious architecture in Ottoman Algeria, and their evolution through their form and their artistic system. Through this, the main problem highlights its content:

Did mihrabs develop in terms of planning and technical structures during the Ottoman era? Did the Muslim artist and the artistic heritage of the intermediate period cite the mosques that preceded the Ottoman period?

Keywords: the mihrab, qibla, architecture, Islamic arts, the Ottoman period.

مقدمة:

لقد تعددت وظائف العناصر المعمارية في فن العمارة بصفة عامة والإسلامية على وجه الخصوص، حيث لم يقتصر دور هذه العناصر على الجانب الدعمي لتقوية المبنى

وتدعيم مختلف أجزائه وعناصره، كما لم يقتصر استعمالها أيضا كوسائل دعم وعناصر تقوية وتمتين لمختلف وحدات المسجد، وإنّما تجاوز دوره ذلك الإجراء التقليدي الذي أنشئت أساسا لأجله، إلى دور آخر يكتسي أهمية بالغة في الفن المعماري، ألا وهو الجانب الجمالي، ذلك أنّ الفنان المسلم كغيره من الفنانين، لم يكن ليعتني بالجانب المعماري على حساب الجانب الجمالي في مختلف أعماله الفنية، وإنّما كان يولي أهمية كبيرة إلى جمالية الشيء، من دون نسيان عامل آخر يتمثل في تكييف مختلف العناصر المعمارية وفق منظور شرعي وبيئي، حيث نجد من هذه العناصر المحراب، والذي رغم ما قيل عن تاريخ ظهوره، والحكم الشرعي في إحداثه، إلاّ أنّ الفنان والمعماري المسلم أبدع في زخرفته ليكون المكان الذي يتصدر بيت والصلاة وهذا ما سوف نراه في هذه المقالة.

انطلق البحث من خلال إشكالية رئيسية مضمونها:

هل عرف المحاريب تطورا من حيث البنية التخطيطية والفنية في الفترة العثمانية؟

وتفرعت عنها مجموعة من الأسئلة الفرعية منها:

هل اقتبس الفنان المسلم من الموروث الفني للفترة الوسيطة من خلال المساجد التي سبقت الفترة العثمانية؟

من حيث الشكل والمظهر الفني، هل هناك اختلاف بين محاريب المساجد والزوايا؟

1. تعرف المحراب لغة:

هو صدر البيت، وأكرم موضع فيه، والجمع محاريب، وأصطلح على المكان الذي يحدد اتجاه المسلمين إلى القبلة حين يجتمعون للصلاة بلفظة محراب، وهو كوة في الحائط تعلوها نصف قبة، فالمحراب دائما يكون متجها للقبلة، وهو محل الإمام من المسجد وتكبيره وركوعه وسجوده ليأتم به المصلون.

ولفظة المحراب مأخوذة من شبه الجزيرة العربية، ووردت في الشعر الجاهلي حيث يقول وضّاح اليمن:

ربّةُ محرابٍ، إذا جئتها لم ألقها، أو أرتقي سلّما.

وأنشد الأزهري قول امرىء القيس: كغزلان رمل في محاريب أقوال.[1]

كما ورد ذكر مصطلح المحراب في القرآن في آيات كثيرة فسرها وشرحها كثير من علماء التفسير منهم ابن كثير في كتابه **تفسير القرآن الكريم** وهي:

– يقول الله عز وجل في كتابه المنير:﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابْ إذ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ... ﴾[2]، ويقول ابن كثير في تفسيره: " إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين، قد تسوّرا عليه المحراب، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما "[3].

– ويقول الله عز وجل كذلك:﴿ ...كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ.... ﴾[4]، والمحراب هنا مكان أو محل عبادة مريم عليها السلام لله ربّ العالمين.

– وقوله سبحانه وتعالى:﴿ فَنَادَتْهُ مَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي في المِحْرَابِ... ﴾[5]، أي خاطبته الملائكة شفاها خطابا، أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته[6].

– وقوله سبحانه وتعالى:﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنِ الْمِحْرَابْ ﴾[7]، حبس لسان النبي زكريا وانقطع عن النّاس لا يكلمهم وشغل نفسه بعبادة الله في محرابه ثلاث ليالي وأيامهن ثم خرج عليهم من المحراب[8].

– وقوله سبحانه وتعالى:﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ.... ﴾[9]، المحاريب: فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره، وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور.

وقال الضحاك: "... هي المساجد ". وقال قتادة: " ...هي القصور والمساجد". وقال ابن زيد: " ...هي المساكن"[10].

والمحراب عند العامة: الذي يقيمه النّاس اليوم مقام الإمام في المسجد، وقال الزجاج في قول الله تعالى:﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابْ ﴾، قال: " المحراب أرفع بيت في الدّار، وأرفع مكان في المسجد. قال: والمحراب هاهنا كالغرفة، وأنشد بيت وضّاح اليمن، وفي حديث: أن النّبيّ صلى الله عليه وسلم، بعث عروة بن مسعود، رضي الله عنه، إلى قومه بالطّائف، فأتاهم ودخل محرابا له، فأشرف عليهم عند الفجر، ثم أذّن للصّلاة. قال: هذا يدل على أنه غرفة يرقى إليها ". [11]

والمحاريب هي صدور المجالس، ومنه سميّ محراب المسجد، ومنه محاريب غمدان باليمن. ومحراب قبلة. ومحراب المسجد أيضا صدره وأشرف موضع فيه. ومحاريب بني إسرائيل: مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها، ويجتمعون فيها للصلاة. وفي حديث أنس، رضي الله عنه، أنه كان يكره المحاريب، أي لم يكن يحبّ أن يجلس في صدر المجلس، و يترفّع على الناس، وقوله تعالى:﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنِ الْمِحْرَابْ ﴾، وقوله سبحانه وتعالى:﴿ فَنَادَتْهُ مَلاَئِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ ﴾، قال المفسرون يقصد هنا المسجد، ومكان العبادة ومحل الخلوة و مجلس المناجاة[12] و الصلاة، ومحراب أكرم مجالس الملوك، وقال أبو عبيدة: المحراب سيّد المجال و مقدّمها و أشرفها.

وقال الأصمعي:" العرب تسمي القصر محرابا، لشرفه. وقال: دخلت محرابا من محاريب حيمر[13]، فنفح في وجهي ريح المسك، والمحراب الموضع الذي ينفرد فيه الملك، فيتباعد من الناس، قال الأزهري: وسمي محراب محرابا لانفراد الإمام فيه، وبعده عن الناس، وقيل سمي المحراب محرابا لأن الإمام إذا قام فيه، لم يأمن أن يلحن، أو يخطى، فهو خائف مكانا كأنه مأوى الأسد، ومن ثم يقال المحراب مأوى الأسد، يقال: دخل فلان على الأسد في محرابه، وغيله وعرينه، وقال ابن الأعرابي: المحراب مجلس الناس ومجتمعهم. ويقال محراب المصلي مأخوذ من المحاربة لأن المصلي يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه"[14].

2. التعريف الاصطلاحي:

يعرف في اصطلاح اليوم بالقبلة، وهي الحنية المجوفة التي تكون في حائط المسجد لجهة القبلة المخصصة للإمام أثناء الصلاة[15].

والقبلة هي صدر المسجد، وهي جداره المتجه نحو الكعبة، فإذا صلىّ النّاس تجاهها كانت وجوههم ناظرة إلى بيت الله في البلد الحرام. وكانت قبلة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم الأولى ناحية بيت المقدس، ثمّ حولها سبحانه وتعالى تجاه الكعبة فتحولت في مسجد الرسول من الشمال إلى الجنوب. وقد صلىّ المسلمون في صدر يوم صرف القبلة إلى بيت المقدس، ثم نزلت آيات صرفها فصلى الناس نحو مكة في آخره (15رجب سنة 2هـ/ 624م)، ويبالغ من يقول أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة عليهم الرضوان صلوا إلى القبلتين في نفس الصلاة، حيث صلوا ركعتين، ثم نزلت الآية فصلّوا الركعتين الأخرتين إلى القبلة الأخرى. وهذا التحليل ليس له معنى، فإن الوحي ما كان ليقطع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يؤم الناس ليبلغه صرف القبلة، وكذلك كيف يتحول المصلين من الشمال إلى الجنوب في صلاتهم دورة كاملة، ومن ثمّ يصبح الإمام خلف المصلين. وتشير معظم كتب السيرة أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم صلى الظهر إلى بيت المقدس، أما صلاة العصر فصلها إلى الكعبة وهذا هو الأصل والقول الصحيح والله أعلم[16].

3 . التأصيل التاريخي لظهور المحراب في عمارة المساجد:

تذكر المصادر التاريخية أنّ أول من اتخذ المحراب هو الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رحمه الله[17]، حيث لم يكن في المسجد النبوي محرابا في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم[18]، و يمكن القول أن المحراب كان متخذا قبل هذا التاريخ إلا أنّه طور أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله، و ذكر ابن بطوطة أن عثمان بن عفان رحمه الله هو الذي وضع المحراب لمسجد المدينة وأشار كذلك: " أنّه قيل أنّ عبد الملك بن مروان رحمه الله هو

أوّل من بنى المحراب، وقيل عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خلافة الوليد بن عبد الملك..."، أمّا المقدسي الذي عاش في منتصف القرن الرابع الهجري قال: " أنّه لما تولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بناء مسجد المدينة وبلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين و الأنصار فقال: احضروا بنيان قبلتكم، لا تقولوا غيرها عمر "[19].

ويذكر الإمام السيوطي رحمه الله أنّ المحاريب ظهرت في أول المائة الثانية للهجرة: "...لأن قوما خفي عليهم كون المحراب بدعة، و ظنوا أنه كان في مسجد النبي صلى الله عليه و سلم في زمنه، و لم يكن في زمانه قط محراب، ولا في زمان الخلفاء الأربعة، فمن بعدهم إلى آخر المائة الأولى، وإنّما حدث في أول المائة الثانية مع ورود الحديث بالنهي عن اتخاذه، وأنّه من شأن الكنائس[20]، وأنّ اتخاذه في المساجد من أشراط الساعة. قال البيهقي في السنن الكبرى: باب في **كيفية بناء المساجد** ...عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **اتقوا هذه المذابح**، يعني المحاريب".[21]

أمّا محراب جامع القيروان فقد أجمع المؤرخون على أنه في سنة (50هـ/ 670م) خط عقبة بن نافع مسجد القيروان ورسم مكان القبلة منه، وأقام محرابه فيه، وأنّ هذا المحراب ظل طوال السنين موضع إجلال القوم وتقديسهم فلم يمسه أحد منهم بسوء. ولما أراد زيادة الله بن الأغلب هدمه وألح على ذلك لم يجبه وحيل بينه وبين هدم. وشكل محراب مسجد القيروان مقوس وهو بذلك يختلف على جل المحاريب المغرب الإسلامي التي نراها مضلعة، وبالتالي هو أقدم محراب مجوف أدخل على المساجد[22].

فيما يخص النظريات والآراء المتعلقة بشكل تجويفة المحراب، فقد حاول بعض المستشرقين[23] إرجاع الأصل المعماري للمحراب إلى المذابح الكنائس التي تميزت هي الآخر بشكله الدائري ويتزعم هذا الرأي كريزول، إلاّ أنّ هناك بعض الباحثين من عارض هذا الرأي على غرار أحمد فكري وفريد الشافعي، وحتى من المستشرقين أمثال

Miles و Briggs، والحقيقة كما ذكر أحمد فكري أنّ وجود المحراب في المسجد جاء لضرورة وظيفية كانت بغرض استغلال صف كان يشغله الإمام أثناء الصلاة، ومن تم وضعت تجويفة في جدار القبلة خاصة بالإمام، وبخصوص شكل الحنية فإنّ تشابهها المعماري مع حنية الكنيسة لا يدل يالضرورة على رأي سوفاجيه أنّها مشتقة منها[24].

4 . أهمية المحراب في عمارة المساجد:

يذكر ابن الحاج عن تحديد لمكان وقوف الإمام في المحراب و الفائدة من ذلك[25]، والدور الحقيقي للمحراب بقوله: " السنة الماضية إذا استوى الإمام قائما في المحراب أن يكون قريبا من المأمومين، وقد كان الإمام في السلف رضي الله عنهم يقرب أن تمس ثيابه ثياب المأمومين وذلك لفوائد: **منها قد يطرأ عليه في صلاته** ما يوجب خروجه منها فلا يحتاج إلى الكلام و لا كثير من عمل الاستخلاف، بل يمد يده إلى من يستخلفه فيقدمه، **ومنها أنه قد يسهو في صلاته** فيسبحون به فلا يسمعهم، فإذا كان قريبا منهم سمعهم في الغالب وتداركوا ما فات ذلك بمسهم أو تنبيههم له عليه فيتدارك إصلاح ما أخل به. **ومنها أن يكون بثوبه نجاسة لم يشعر بها**، فإذا كان قريبا منهم أدركوها فنبهوه عليها إلى غير ذلك. ولم يكن للسلف رضي الله عنهم محرابا وهو من البدع التي أحدثت لكنها مستحسنة، **لأنّ أكثر الناس إذا دخلوا المسجد لا يعرفون القبلة إلا بالمحراب،** فصارت متعينة لكن يكون المحراب على قدر الحاجة وهم قد زادوا فيه زيادة كثيرة، والغالب من بعض الأئمة أنهم يصلون داخل المحراب حتى يصير بسبب ذلك على بعد من المأمومين وذلك خلاف السنة، ثم إنّه يخرج بذلك نفسه من الفضيلة لأنّ باقي المسجد أفضل منه، ألا ترى أن علمائنا رحمهم الله قالوا فيمن أضطر إلى النوم في المسجد، أنه ينام في محرابه لأنّه أخفّ من باقي المسجد. بل لا ينبغي له إذا كان المسجد لا يضيق بالناس أن يدخل إلى المحراب، فإن ضاق بهم فليدخل على الصفة المتقدمة، لأنه

إذا لم يدخل يمسك بوقوفه خارجا عنه موضع صف في المسجد وهو قد يسع خلقا كثيرا."[26]

ويمكن استنتاج من هذا الرأي مايلي:

- يفيد في تحديد مكان الإمام عند الصلاة.

- يفيد في توسيع طاقة استعاب المسجد بما يقرب من صف من المصلين في الصلاة الجامعة، ليتسع للإمام في ركوعه وسجوده أثناء الصلاة، بحيث لا يشغل مساحة كبيرة يستهلكها هذا الإمام من أصل مساحة المسجد دون أي طائل أو فائدة.

- يساعد على تجميع صوت الإمام وتكبيره، وإيصاله للمصلين الذين يوليهم ظهره أثناء الصلاة.

- والمحراب من المصالح المرسلة التي تبدو لمن لا بصيرة له، كأنها بدع يجب تجنبها وعدم إقرارها، وهو عبارة عن علامة دالة على القبلة؛ إذ لولاها لكان العوام ومن لا علم لهم إذا دخل المسجد في وقت لا يوجد غيره يحتار في القبلة، وقد يصلي إلى غيرها، وقد يصبح كل من يدخل المسجد يسأل عن قبلته، لذا اتخذ السلف هذا الطاق في قبلة المسجد للدلالة على القبلة، وليس هو من العبادات في شيء حتى يقال فيه " بدعة منكرة ".

وعادة ما يحدث خلاف في كيفية تنصيب القبلة، ومن ثم مكان المحراب، وهذا ما نجده عادة في المساجد المبكرة، حيث نرى المحاريب تميل إلى اليسار أو إلى اليمين وهذا ما نجده بالمسجد الجامع بالقيروان[27]، ولكن هذا الانحراف ما كان ليخرجهم عن توسطهم لحائط القبلة لبيت الصلاة.

وعلى العموم كان اهتمام العلماء بتحديد جهة القبلة شغلهم الشاغل عند بناء المساجد، وكان ينصب المحراب بالمشورة، واتفاق العلماء عليه، ومن ثمّ وجب إتباع وتقليد المساجد الكبيرة في تحديد القبلة سئل الشيخ الفقيه قاضي الجماعة و مفتي حضرة غرناطة أبو القاسم بن سراج رحمه الله عن إمام بقطر كبير يؤم الناس بالمسجد الأعظم

من ذلك القطر، ينحرف بداخل المحراب لجهة المشرق انحرافا كثيرا مع أنّ المحراب على خمسة و أربعين جزءا كما هي أكثر محاريب بمساجد الأندلس، فهل يسوغ ذلك للإمام ويلزم المأمومين إتباعه في ذلك، وينحرفون معه؟ أو لا يسوغ ذلك له؟ فأجاب: " إنّه لا ينبغي للإمام أن ينحرف الانحراف المسؤول عنه، لأنّ المحراب المنصوب بمصر كبير يعلم نصبه باجتماع كثير من الناس والعلماء، وذلك ما يدل على صحته ونصبه بالاجتهاد، وقد نص العلماء رضي الله عنهم أن المحاريب التي بالأقطار الكبار يصح تقليدها...."[28].

ولما أراد عبد الرحمن بن الحكم[29] تحويل قبلة المسجد الجامع بقرطبة، وقد اتفق من لديه من أهل الحساب، وفيهم أئمة يقتدى بهم، على انحرافها إلى جهة المغرب كثيرا، صرف عن ذلك لاستعظام عامة الناس مخالفة ما درج عليه أسلافهم فأقصر عن ذلك[30].

ويذكر الونشريسي كيفية تنصيب قبلة مسجد جامع مدينة مراكش بقوله: " وعندما قدم الموحدون على نصب القبلة بمسجد جامع مدينة بمراكش على وسط الجنوب بتقريب، وجه آخر أيضا مما يدل على صحة الوسط ما ذكره أبو عمر بن عبد البر و ابن العربي، و اللفظ لأبي عمر، عن أحمد بن حنبل أنّه قال: هذا المشرق، وأشار بيساره وهذا المغرب، وأشار بيمينه، وهذه القبلة فيما بينها. إلّا أنّه ينبغي أن يتحرى الوسط"، وقال ابن حسان:" عمله لأمير المؤمنين المنصور بمراكش، وأمر برفعه للخزانة. وهو يتضمن صحة ما عمله الموحدون من نصبهم القبلة بمراكش على وسط الجنوب بتقريب."[31] .

وسئل الونشريسي عن نقل المحراب عن موضعه إذا زيد في المسجد، فأجاب: "... أما نقل المحراب من موضع إلى موضع جديد فلا بأس به بحسب المصلحة، وما تراه الجماعة في ذلك من الرفق لهم"[32].

ويقول ابن العربي في محاريب المساجد الكبيرة[33]:"...مساجد الأمصار هي بالاجتهاد، ولكنه يتعاضد الأمر فيها ولا يعلم واضعها، وهي مختلفة في التيامن والتياسر،

وإن كانت لم تخرج عن السمت المتعارف ممّا بين المشرق والمغرب، وقد خطّ جامع قرطبة ووصل جماعة من الرفقاء الحجاج، كبقي بن مخلد ومحمد بن وضاح من أهل الصلاة جماعة ممن حج وروى كيحيى بن يحي وصلوا القبلة ذاهبين وراجعين بافريقية ومصر والشام والحجاز والعراق، فما اعترضوا على جامعها بعيب سمته ولا حرفوا فيه، فالدين عندهم أمتن والعلم أوفر..."[34].

ويقول ابن رشد: "...وجامع الأندلس ومدرسة العطارين مستقبلة جهة الجنوب بين المشرق والمغرب، وكذا جامع تلمسان، وقد تقدم أنه ليس لأهل المغرب قبلة بين المشرق والمغرب، وإنما قبلتهم في جهة المشرق بين الشمال والجنوب..."[35].

ومن خلال ما أفردناه من النصوص الشرعية وآراء المفكرين وعلماء الإسلام التي وردت في المحراب واتجاه القبلة يتضح لنا أن محاريب مساجد مدينة تلمسان متجهة نحو الجنوب الشرقي تقريبا، ويبدو أنّها اتبعت في ذلك موضع واتجاه محراب مسجد أغدير، ثم محراب الجامع المرابطي بتكرارت على غرار مسجد سيدي أبي الحسن.

أمّا في مدينة الجزائر فإن محاريب المساجد متجهة نحو الشرق تميل ميلا طفيفا نحو الجنوب الشرقي، وهذا ما نلاحظه في المساجد التي بنيت قبل الفترة العثمانية مثل مسجد سيدي رمضان، والمسجد الجامع المرابطي، والمساجد التي بنيت فيما بعد والتي يبدو أنّها اتخذت من محراب المسجد الجامع المرابطي مقياسا لنصب القبلة، ويبدو أن مسجد على بتشين قد خرج عن هذه القاعدة، حيث نرى محرابه يميل نحو الشمال الشرقي (لم يتغير مكان منذ تأسيسه).

5. نماذج من المحاريب في الفترة العثمانية:

تطور شكل المحراب بتطور العمارة والفنون الإسلامية، فأبدعت فيه أشكالا مختلفة تراوحت فيه مابين الشكل النصف الدائري والشكل المضلع[36]. وعموما تتميز المحاريب بانقسامها إلى نمطين، الأول يتسم بتجويفته البارزة إلى خارج المبنى، نجده في عدد كبير

من المساجد والزوايا عبر التاريخ الإسلامي، منها ما اتخذ بروزها الخارجي شكلا دائريا كجامع الزيتونة (250هـ/864م) بتونس، وجامع اشبيلية في الأندلس، وجامع الكتبية بمراكش (541هـ/1146م) وجامع الباي حسين بن علي بتونس (1117هـ/1715م)، وجامع صفر بن عبد الله (941هـ/1534م)، بمدينة الجزائر، والجامع الكبير بمعسكر (1130هـ/1747م)[37].

أمّا المحاريب التي اتخذ بروزها الخارجي شكلا مستطيلا على غرار جامع قرطبة (785/169م)، وجامع سوسة بتونس (236هـ/851م)، ومسجد أبي مدين (739هـ1339م) ومسجد سيدي الحلوي (754هـ/1253م) بتلمسان، والجامع الجواني (1234هـ/1819م) جامع القصبة الخارجي بمدينة الجزائر[38].

والنمط الثاني والذي جاءت فيه المحاريب غير بارزة عن جدار القبلة، نذكر منها: جامع مسجد الأقصى بفلسطين ومسجد القسطل والفدين في الأردن، الجامع الأموي بدمشق ومسجد قصر المشتى ومسجد واسط بالعراق، ومسجد قمرية والمراضية في بغداد وجامع سيدي أبي مروان بعنابة والجامع الكبير بقسنطينة (530هـ/1135م) وكلاهما من الفترة الحمادية، وزاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وجامع البراني (جامع القصبة الداخلي 1233 هـ/1818م) بمدينة الجزائر[39].

وحسب الأستاذ بورويبة، فإنّ المرابطين هم الأكثر استعمالا المحاريب ذات الأشكال المضلعة، وذلك في كل مساجد تلمسان التي تنتمي إلى الفترة المرابطية والزيانية والمرينية، بغض النظر عن تفاوت أحجامها، وأقدم محراب مضلع الشكل في الجزائر هو محراب الجامع الكبير بتلمسان (530هـ / 1136م)، كما أنّه يرى بأنّ هذا التجويف المضلع في مساجد الغرب الجزائرية بصفة خاصة هو تأثير من مسجد قرطبة[40] ونجد في مساجد مدينة الجزائر في العهد العثماني شكلين من المحاريب هي نفس تلك التي نجدها بتركيا أي الشكل نصف الدائري والشكل المضلع،

إنّ وجود المحاريب النصف دائرية يجعلنا نفكر مباشرة في تأثير عثماني على هذا العنصر المعماري، بالإضافة إلى الشكل المضلع الذي كان سائدا من الجهة الغربية من المغرب الأوسط كما ذكرنا آنفا، فإن الجهة الشرقية منه تحتوي على محاريب ذات حنيات نصف دائرية مثل الجامع والمصلى الموجودان بقلعة بني حماد والجامع الكبير بقسنطينة الذي يعود إلى القرن (6هـ/12م) وسواء كان تأثيرا عثمانيا أو استمرار لتقليد كان سائدا، فإن الوجود العثماني هو الذي أعاد الشكل من المحاريب إلى الواجهة المعمارية.

وكل هذه المحاريب بشكليها بسيطة جدا، تعلو حنيتها عقود حدوية أو منكسرة وأغلبها يحدها عمودان من الجانبين.

كما بالغ الفنان المسلم في الفترة العثمانية في تزين المحاريب، حيث استخدم البلاطات الخزفية "القاشاني" المتعدد الألوان، أو الزخارف الجصية بأسلوب النقش البارز لرسم النصوص الكتابية والتفريعات النباتية[41].

1.5 . جامع صفر بمدينة الجزائر (940هـ/1534م):

ويتوسط جدار القبلة المحراب المجوف الذي تتخذ تجويفاته شكل نصف دائري، وتبلغ فتحة الحنية 1,99م، أمّا عمقها 1,18م وهي مسقوفة بطاقية ربع قبة بها عروق تنطلق من قمتها، ولقد كسي المحراب ببلاطات خزفية حديثة على ارتفاع 1,95م من مستوى بيت الصّلاة، ويكتنف المحراب عمودان رخاميان لهما قواعد وتيجان يقومان بحمل الإطار المعقود بعقد نصف دائري مدبب مفصص ويحمل زخارف نباتية وهندسية، يعلو هذا الإطار ثلاث فتحات مستطيلة مزججة بدل الشمسيات (صورة 01).

الصورة 01: محراب جامع صفر بن عبد الله

2.5 . الجامع الجديد بمدينة الجزائر (1070هـ / 1660م):

محراب الجامع الجديد مجوف الشكل، الذي تتخذ تجويفاته شكل المضلع، وعدد أضلاعه سبعة وتبلغ فتحة الحنية 2,20م، أمّا عمقها 1,30م وهي مسقوفة بربع قبة، ولقد كسي المحراب ببلاطات خزفية في القسم السفلي كلها مستوردة، يعود أصلها إلى أوروبا[42] (إيطاليا، هولندا، دلفت).(شكل 01) و(صورة 02).

بينما القسم العلوي مزّين بزخارف جصية بنوعيها الكتابية والنباتية، ويكتنف المحراب عمودان رخاميان يقومان بحمل الإطار المعقود بعقد حذوي متجاوز.

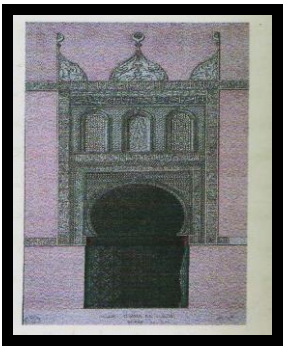

شكل1: محراب الجامع الجديد

صورة 02: تجويفة محراب الجامع الجديد

عن: (Ballu (A.), OP-cit, p.171- 183.)

3.5. جامع البراني بمدينة الجزائر (1233هـ/1818م):

في وسط جدار القبلة يظهر المحراب مجوف يبلغ عمقه1,23م، ذو حنية نصف دائرية، يكتنفه عمودان أسطوانيان من الحجر الجيري، يرتكزان على قاعدة مربعة، ويعلوهما تاجان بسيطان، تمتد من الداخل وعلى نفس المستوى نصف قبة يتوج منها خطوط عددها ثمانية على شكل أشعة تلتقي في نقطة مركزية واحدة. وعلى طرفي المحراب من الجهتين اليمنى واليسرى عقد مفصص يتكون من ثلاثة عشر فصا، فهو بمثابة عقد أصم من أجل الزخرفة فقط (صورة 03).

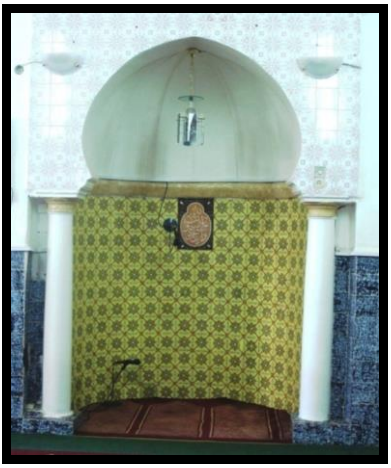

صورة 03: محراب جامع البراني

4.5. محراب زاوية سيدي محمد الشريف بمدينة الجزائر:

اتخذ عقد المحراب الشكل نصف دائري المتجاوز المنكسر، بينما تجويفة المحراب فهي نصف دائرية، يرتكز على عمودين مدمجين بالجدار. (صورة 4،5).

صورة4: محراب زاوية سيدي محمد شريف

صورة5: محراب زاوية سيدي محمد الشريف

5.5. محراب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر (1020هـ/ 1611م):

يأخذ محراب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي مفتاح عقده الشكل المتجاوز المنكسر، بينما التجويفة نجدها مضلعة الشكل، كسيت ببلاطات خزفية جميلة بمختلف الألوان والأشكال، ويكتنف المحراب عمودان من الرخام. (صورة6)

صورة6: محراب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي

6.5. محراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف بمدينة مليانة (1188هـ/1774م):

– المقاسات:

إرتفاع كلي: 2.30 م عرض: 1. 25 م

التجويفة: عرض: 0.96م عمق: 0.96م

يوجد المحراب في الجدار الجنوبي للضريح، وهو عبارة عن تجويفة نصف دائرية تكسوها طبقة من المربعات الخزفية بمختلف الأشكال والألوان، ويعلو المحراب بقسمه العلوي، نصف قبيبة مزينة بمغازل وأخاديد منحنية تأخذ شكل نصف قوقعة.

أمّا إطار المحراب فيتكون من عقد حذوي منكسر، يرتكز على عمودين. (الصورة 7).

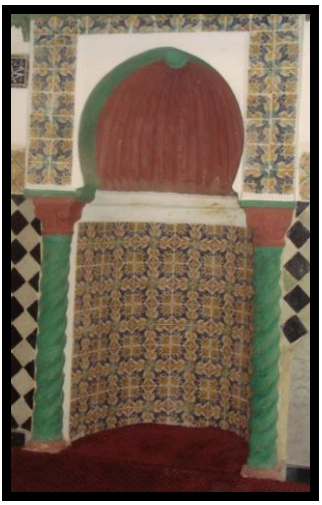

صورة 7: محراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف

7.5. محراب زاوية باش تارزي بمدينة قسنطينة (1221هـ/1806م):

- المقاسات:

ارتفاع كلي: 2.08 م عرض: 1. 15 م

التجويفة: عرض: 0.98م عمق: 0.56م

ويأخذ عقد المحراب الشكل المتجاوز، بينما التجويفة فنجدها نصف دائرية، المحراب مزدان بزخارف متنوعة، قوامها قبيبة مشعة على شكل محارة أو صدفة تتبع من نصف

دائرة مزينة بنتوءات في شكل مثلثات ومعينات متقابلة ومتدابرة تتجه أخاديد القبيبة نحو الأعلى ليتشكل منها عقد مفصص يزين واجهة المحراب. (صورة8)

صورة 8: محراب زاوية باش تارزي

6. دراسة تحليلية للمحاريب:

1.6. مواقع المحاريب:

أ. محاريب المساجد تتوسط بيت الصلاة:

يتوسط جدار القبلة في كل من جامع صفر بن عبد الله، والجامع الجديد وجامع البراني.

ب. محاريب الزوايا في أماكن مختلفة:

- محراب زاوية سيدي محمد يقع في جزء من بيت الصلاة
- محراب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي يقع في ضريح الزاوية (قاعة الضريح).
- محراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف يقع في ضريح الزاوية (قاعة الضريح).
- محراب زاوية باش تارزي يقع في بيت الصلاة.

2.6. أشكال الحنيات أو التجويوات:

أ. **الحنيات المقوسة:** تأخذ هذه الحنيات الشكل النصف دائري أو أقل من نصف الدائرة أو متجاوزة للنصف الدائرة.

ب. **من المحاريب التي ظهرت فيها الحنية نصف دائرية هي:** محراب جامع صفر بن عبد الله، ومحراب الجامع البراني، محراب زاوية سيدي محمد شريف، ومحراب زاوية سيدي محمد، ومحراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف ومحراب زاوية باش تارزي.

ج. **الحنيات المضلعة:** محراب الجامع الجديد، والزاوية الوحيدة ذات حنية مضلعة تتمثل في زاوية سيدي عبد الرّحمن الثعالبي.

3.6. الطاقيات:

لدينا طاقيات مضلعة، وطاقيات خالية من الزخرفة أي ملساء، وطاقيات بتعاريق أو خطوط مشعة.

أ. **الطاقيات الملساء:** استعملت في محراب جامع صفر، زاوية سيدي محمد.

ب. **الطاقيات المضلعة:** استعملت في محراب الجامع الجديد، ومحراب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

ج. **الطاقيات بخطوط متشابكة:** استعملت في محراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف بمغازل وأخاديد منحنية تأخذ شكل نصف قوقعة، كما استعملت في محراب زاوية باش تارزي وهي قبيبة مشعة على شكل محارة أو صدفة تتبع من نصف دائرة مزينة بنتوءات في شكل مثلثات ومعينات متقابلة ومتدابرة تتجه أخاديد القبيبة نحو الأعلى، نفس الشئ بمحراب الجامع البراني.

4.6.المنظومة الفنية لتجويفات المحاريب:

استعمل نوعان من طريقة تزيين الحنيات من الأسفل:

أ . **الزخارف الجصية:** إستعملت في تكسية محراب الجامع الجديد، وزاوية باش تارزي.

ب.تكسية بالبلاطات الخزفية: استعمل هذا النوع في محراب جامع صفر، ومحراب الجامع الجديد ومحراب الجامع البراني، ومحراب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ومحراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف، وهذا تأثرا بالتقاليد التركية.

5.6. عقود فتحات المحاريب: (شكل 2،3،4،5).

تنوعت أشكال عقود فتحة المحراب، منها النصف دائرية، والحدوية، والمتجاوزة المنكسرة.

أ. العقد النصف دائري: استعمل في محراب جامع صفر

ب. العقد الحدوي: استعمل في محراب زاوية سيدي أحمد بن يوسف، ومحراب الجامع البراني.

ج. العقد المتجاوز المنكسر: استعمل في محراب الجامع الجديد، وزاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ومحراب زاوية باش تارزي.

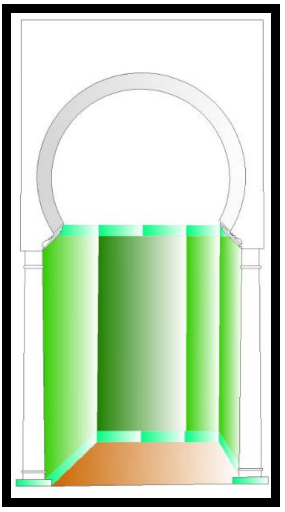

شكل2: المحراب زاوية سيدي عبد الرحمن يوسف

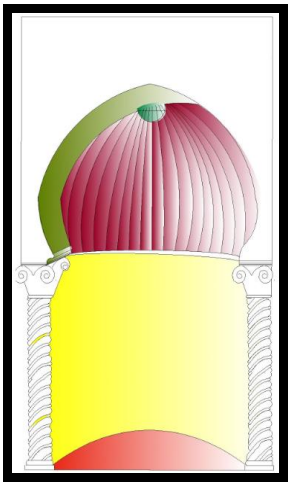

شكل 3: محراب زاوية سيدي أحمد بن

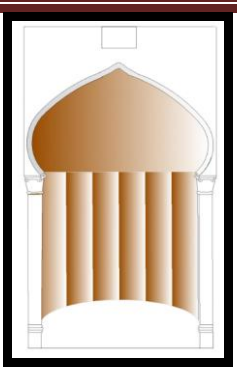

شكل4: محراب زاوية سيدي محمد

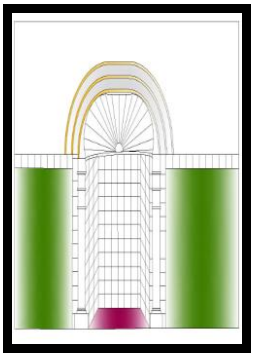

شكل5: محراب.زاوية باش تارزي

الخاتمة:

من خلال هذه الورقات البحثية نلخص إلى النتائج التالية:

– ظهرت المحاريب كعنصر معماري في عمارة المساجد وانتشر منذ العصر الإسلامي المبكر، ثم تطور من حيث التخطيط والمنظومة الفنية عبر جميع الفترات التاريخية التي مرت بها العمارة الدينية الإسلامية إلى غاية الفترة العثمانية.

– كانت المحاريب المبكرة بسيطة في شكلها ونظومتها الفنية، ثم عرفت تطورا كبيرا خاصة من حيث القيمة الجمالية، حيث كسيت واجهة محاريب بالزخرفة الجصية وبعناصر زخرفية كتابية ونباتية قوامها المراوح النخيلية، لتزدان في الفترة العثمانية بالبلاطات الخزفية المحلية والمستوردة والمتنوعة الألوان والزخارف.

– المحاريب تراوحت تجويفاتها بين المضلعة والنصف دائرية، واستعملت الطاقيات بأنواع مختلفة، منها الطاقية الملساء، ومنها ذات الزخارف الجصية، ومنها التي تشبه المحارة.

لتزيين تجويفة المحراب فقد استعملت الطريقة العثمانية بكثرة والمتمثلة في كسوة التجويفة من الأسفل أو كلية بالبلاطات الخزفية ذات الألوان والزخارف المختلفة.

– تنوعت أشكال عقود فتحة المحراب، منها النصف دائرية، والحدوية، والمتجاوزة المنكسرة.

1 – ابن منظور جمال الدين، **لسان العرب**، تحقيق عامر احمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003م، ج2، ص336.

2 – سورة ص، الآية 21، 22.

3 – ابن كثير إسماعيل الدمشقي (توفي: 774 هـ/ 1372م)، **تفسير القرآن العظيم**، اعتنى بها وخرج أحاديثها: محمود بن الجميل، ط2، دار الإمام مالك، الجزائر، 1430هـ / 2009م، ج4، ص47.

4 – سورة أل عمران، الآية، 37.

5 – سورة أل عمران، الآية، 39.

6 – ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص562.

7 – سورة مريم الآية 11.

8 – للمزيد من التفاصيل أنظر: – ابن كثير، المصدر السابق، ج3، ص165.

9 – سورة سبأ، الآية 13.

10 – ابن كثير، المصدر السابق، ج3، ص761.

11 – للمزيد من التفاصيل أنظر: –ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص336، 337.

وكذلك: –حسين مؤنس، **المساجد**، عالم المعرفة، الكويت، 1401 هـ / 1981م، ص 73.

12 – ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص 562.

13 – قبيلة العربية يمنية، وتعرف لهجتهم العربية السامية باللهجة الحميرية.

14 – محمد السعيد الطريحي، **العتاب المقدسة في الكوفة**، ط2، دار الكتب للمطبوعات، لبنان، 1406هـ / 1986م، ص، 60.

15 – طه الولي، المساجد في الإسلام، دار العلم للملاين، لبنان، 1409 هـ / 1988م، ص220.

16 – للمزيد من التفاصيل أنظر: –ابن كثير، المصدر السابق، ص300، 301. وكذلك: –حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 70.

17 – في هذه الفترة كان واليا على مكة والمدينة للخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. للمزيد من التفاصيل أنظر: – ابن كثير إسماعيل الدمشقي، **البداية والنهاية**، تحقيق: أبو عبد الله محمود بن الجميل، ط2، دار الإمام مالك للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1430هـ/ 2009م، ج5، ص418، 419.

18 – للمزيد من التفاصيل حول ظهور المحاريب في عمارة المساجد أنظر بتمعن: –جلال الدين السيوطي، **إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب**، دراسة وتحقيق: عماد طه فرة، ط2، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، 1411هـ/ 1990م، ص14.

19- المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد (336هـ – 947م / 380هـ – 990م)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مطبعة بريل، ليدن، 1877م، ص8.

20 – وهذا ما ذهب إليه فريد الشافعي بأنّ اقتباس المحراب المجوف هو الحنيات الرّومانية الصغيرة التي كانت بمثابة زخارف جدارية، استخدمها المسيحيون في عمائرهم وكنائسهم لنفس الغرض الزخرفي. للمزيد من التفاصيل أنظر: – فريد الشافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، القاهرة، 1970، ج1، ص167.

21 – السيوطي، المصدر السابق، ص14.

22 – للمزيد من التفاصيل أنظر: –محمد ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار"**، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د،ت)، ص 32. كذلك: –أبو عبيد البكري (توفي: 487هـ / 1094م)، **المسالك وممالك**، تحقيق: ديسلان، الجزائر، 1857م، ص23. كذلك: –ابن عذارى محمد المراكشي (توفي حوالي: 695هـ/ 1295م)، **البيان المغرب في أخبـار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج. س كولان وإليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983م، ج1، ص24.

23 - Sabag (P.), **La grande mosquée de Kairouan**, Delphale, 1963, p66.

24 – فريد الشافعي، المرجع السابق، ص599 – 608. وانظر أيضا: –أحمد فكري، **مسجد القيروان**، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، 1936، ص54 – 59. وكذلك –حمود غيلان، **محاريب صنعاء حتى أواخر القرن (12هـ/18م)**، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، اليمن، 2004، ص52 – 54. وكذلك: –حسن مؤنس، المرجع السابق، ص69، 70. وكذلك: –عبد القادر دحدود، **مدينة قسنطينة خلال لعهد العثماني**، رسالة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2010/2009م، ص570 – 575.

25 – للمزيد من التفاصيل أنظر: –محمد بن حمو، **العمران والعمارة من خلال كتب النوازل بالمغرب الإسلامي، دراسة في فقه العمران والعمارة الإسلامية**، رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1432هـ/ 2011م، ص 124.

26- أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي (914هـ/ 1508م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، أخرجه: محمد حجي وآخرون، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1401هـ/ 1981م، ج7، ص 486.

27- أحمد فكري، المرجع السابق، ص56.

28- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 116.

29 – بويع بعد والده في آخر سنة ست ومائتين، فامتدت أيامه، وكان وادعا، حسن السيرة، لين الجانب، قليل الغزو، غلبت المشركون دولته على إشبيلية، وكان مولده بطليطلة سنة ست وسبعين ومائة، ومات في سنة ثمان وثلاثين ومائة. للمزيد من التفاصيل أنظر: –ابن الخطيب لسان الدين، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك**

الإسلام وما تعلق بذلك من كلام، تحقيق سيد كسراوي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان، 1424هـ /2003م، ج2، ص 19.

30- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 118.

31 - نفسه، ج7، ص199.

32 - نفسه، ج7، ص204.

33 - مساجد الأمصار.

34- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 122، 123.

35 - عبد الله إبن إبراهيم الزرهوني التافستي (توفي بعد سنة 1150هـ 1738م)، **رحلة الوافد**، تحقيق: صديقي عازيكو، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م، ص 18 ومايليها.

36 - للمزيد من التفاصيل أنظر:

- Bourouiba (R). **Apports de L'Algérie a l'architecture religieuse arabo- islamique**, Entreprise national du livre et office des publications universitaires, Alger, p78.
- A.Lézine, **Deux villes d'Ifriqiya : Sousse, Tunis**, Librairie orientaliste Paul Gauthier, Paris, 1971, p176 – 246.
- Marcel (P), **La qibla et le mihrab**, Alger,1972,p.13),
- Golvin- L. **Essai sur l'architecture religieuse musulmane**, T4, Editions Klincksieck, Paris, 1970, p 172 - 290.

37 - Saadaoui (R.), **Tunis ville Ottomane Trpis siecle d'urbanisme et d'architecture**, centre de publication universitaire, Tunis, 2001, p16.

38 - عبد الله عبد السلام صالح الحداد، **صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية**، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999، ص72.

39 - حمود غيلان، المرجع السابق، ص174، 175.

40 - Bourouiba (R.), **L'art religieux musulmane en Algérie**, Alger, 2eme édition, 1981, p.113.

41 - محسم محمد عطية، موضوعات في الفنون الإسلامية، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994، ص72. وانظر كذلك: -خيرة ين بلة، **المنشآت الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني**، رسالة دكتوراه دولة، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2 ،2007م، 2008م، ص186 – 190.

42 - Ballu. A, "Quelque mots sur l'art musulman en Algérie", In *Revue Africaine*, Alger, 1904, p.171- 183.